



الفصل الأول

لمحة
عن فن الخطابة

لمحة عن فن الخطابة

الحمد لله ربّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين :

الخطابة الدينية كانت، وستبقى، أهم وسيلة لإيصال الفكرة للناس، وتوجيههم الوجهة الصحيحة، لذلك كان من الضروري جداً الاهتمام بالخطبة كعنصر أساسي من عناصر الدعوة الإسلامية، يلتقي فيها الخطيب بجموع غفيرة من الناس من شتى المستويات الفكرية، والثقافية، والعلمية، لأن الخطبة بهذا تشكل محوراً أساسياً لمخاطبة المجتمع بكل اتجاهاته.

أولاً - ركائز الخطبة:

تتنوع الخطبة بتنوع موضوعاتها وأهدافها، فمنها الدينية (كخطبة الجمعة، والعیدین، والخسوف، والكسوف، والاستسقاء) ومنها العلمية، ومنها الاجتماعية، ومنها خطب المناسبات.

ولا بدّ لكل خطبة حتى تكون ناجحةً أن تعتمد على ركيزتين :

١ - الإقناع.

٢ - الاستمالة.

وقد تصير الخطبة كسيحة لا تقوى على القيام إذا فقدت هاتين الركيزتين، كما أنها تصبح عرجاء إذا فقدت إحداهما.

١ - الإقناع:

هو مخاطبة العقل الرشيد بالمنطق السديد، ونصب الأدلة والبراهين، وبسط الحقائق والموازن للوصول إلى قناعة المستمعين، فإذا ما كان حديث الخطبة يدور حول حقيقة البعث بعد الموت مثلاً، فلا بد من قيام الأدلة الساطعة، والبراهين القاطعة، من نصوص الكتاب والسنة، والأدلة العقلية التي تبين حكمة الله من إحياء الموتى.

فمن الأدلة مثلاً على إحياء الموتى، عندما ألقى أحد المشركين هذه الشبهة في قوله تعالى: ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨/٣٦].

فأجاب الله تعالى عن هذا السؤال بخمسة أدلة:

أولها: قوله مع إدراج سؤاله: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾.

وثانيها: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩/٣٦].

وثالثها: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ [يس: ٨٠/٣٦].

ورابعها: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِنْهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١/٣٦].

وخامسها: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢/٣٦].

وخلص إلى النتيجة الحتمية العقلية المنطقية في الآية الخاتمة:

﴿فَسُبْحَنَّ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتَهُ كُلَّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس : ٣٦ / ٨٣].

وانظر معي كيف أن الله ﷻ قد ضرب الأمثال للناس وهو تقريب الحقيقة إلى الأذهان، والوصول إلى القناعة العقلية بمقارنة الأشياء بعضها ببعض، قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَعِزُّوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج : ٢٢ / ٧٣].

وهو مثال على ضعف الإنسان وعجزه، حتى أمام أضعف المخلوقات، وضعف آلهته التي كان يشرك بها، عن خلق ذبابة صغيرة، بل وعن استرداد ما تسلبه منه، ألا فكيف تكون ضالة قدرة الإنسان الذي قهرته جرثومة لا تُرى بالأبصار، وذبابة حقيرة لا تُدرك ولا تُطال، فكيف به إزاء خلق السموات والأرض وهي أكبر من خلق الناس كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر : ٤٠ / ٥٧].

٢ - الاستمالة :

وهي تحريك العاطفة البشرية، واستثارة كوامن القلب بما طُبِعَ عليه من تأثر بالحوادث، ورحمة بالضعفاء، وبما فطرت عليه جبلته من محبة الله ﷻ وخشوع بين يديه، وبر بالوالدين، وصلة للقرابة، وإحسان للمساكين، ولو أنك قرأت قصص الأنبياء في القرآن الكريم، لوجدت النور والضياء، والكمال والجمال، يشع في ثناياها يوقظ النائم، وينبه الغافل، فمثلاً: قد يستعمل القرآن الكريم أداة الاستفهام لإيقاظ الوجدان: ﴿هَلْ أَنتَكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [النازعات : ١٥ / ٧٩].

وهنا تستثار العواطف شوقاً إلى ما بعد الاستفهام، فتنزل الآيات بعد ذلك على النفس، كأنها قطرات الندى على الزهرة الظمأى.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَىٰ النَّارِ هَذِي﴾ [طه: ١٠/٢٠].

وقد يقدم القرآن الكريم للمراد من الذكر باستفهام يشوق النفس فيقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْكَؤُاْ عَلَىٰ بَحْرٍ مِّنْ مَّاءٍ﴾ [الصف: ١٠/٦١]، فتجد أن النفس تتطلع إلى تلك التجارة، فيقول الله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١١/٦١]، وهكذا نجد أن الاستمالة تعتمد على الأساليب البلاغية التي تبعث في النفس نشاطاً، وتجدد فيها اهتماماً.

والأساليب البلاغية كثيرة مثل: الاستعارة، والتشبيه، والكناية، والمحسنات البديعية، وعلم المعاني، الذي يشتمل على القصر، والوصل، والفصل، والإيجاز، والإطناب، والخبر، والإنشاء، فكل هذه الأدوات تبعث في النفس رونقاً وبهاءً، وتشع لها العقول جلالاً وجمالاً، وكما أن القصة تخاطب العاطفة مخاطبة ذات عمق، فإن الأساليب التي تأخذ بالنفس كل مأخذ لروعتها، تكسو المعاني ثوباً قشيباً رائعاً، «فإن من البيان لسحراً»^(١).

ثانياً - أسس الخطبة:

لكي تكون الخطبة وافيةً كاملةً جامعةً، لابد أن يتوافر لها ثلاثة مكونات: أولها: المقدمة، ثانيها: الموضوع، وثالثها: الخاتمة.

١ - المقدمة:

يجب أن يكون فيها الحمد لله ﷻ والثناء عليه، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

(١) رواه البخاري: ١١٤/١٦، ح: ٤٧٤٩ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

كما أنه يجب أن يكون فيها شيء من براعة الاستهلال؛ وهو ذكر شيء من الموضوع في المقدمة، مثلاً: إذا أردت أن تتكلم على الصدق تقول: الحمد لله، الحمد لله الذي وصف عباده المؤمنين بالصدق، وأثابهم عليه بقوله: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤/٣٣].
والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق المصدوق، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد.

وبذلك - كما ترى - تكون المقدمة ممهدة للموضوع.

٢ - الموضوع:

يجب أن يكون الموضوع مكماً للمقدمة.

ويجب أن يكون الموضوع؛ إما دعوة لأمرٍ ما، مثل: أن يدعو إلى الإنفاق فيذكر تعريفه، ثم يحض ويرغب فيه، ثم يذكر ما للمنفقين من أجر عظيم عند الله.

أو أن يكون نهياً عن أمرٍ ما، مثل: الغيبة والنميمة، فيذكر مضارها، وكيف يعالج المرء نفسه منها، ثم يذكر العقاب لمن لم يكف عن الخوض فيها.

وعلى الخطيب أن يكثر من الشواهد من الكتاب والسنة وعيون الشعر العربي، وعليه أن يسوق قصة تدعم موضوعه، فللقصة أثرٌ بالغ في تمثيل الموضوع وفهمه، والتأثير به، والمسارة إلى تطبيقه.

وعلى الخطيب أن يكون ملماً باللغة العربية، أو بأكثر قواعدها، حتى لا يخطئ بإلقاء الكلمات والعبارات، مما يعكر فيها صفو السامع.

وعلى الخطيب أن يضبط الكلمة المُشكِلة فقط، فقد قالوا: (إنما يُشكِّلُ ما يُشكِّلُ)، وخصوصاً في تشكيل الآيات والأحاديث.

وعلى الخطيب أن يستخدم أسلوب الترغيب والترهيب، لا أن يقتصر على أحدهما.

٣ - الخاتمة :

أما بالنسبة إلى الخاتمة فعلى الخطيب أن يلم بجميع الأفكار التي طرحها في المقدمة، والموضوع، ليعطي نتيجة مهمة في الخاتمة، وبذلك تكون الخاتمة ملخصة للموضوع، وبهذا تكون الخطبة كاملة بجميع أركانها. وهذا مثال كامل من القرآن الكريم على المقدمة، والموضوع، والخاتمة، التي تشكل موضوعاً منسجماً مناسباً متناغماً.

قال الله تعالى في سورة الواقعة، وهو يستعرض أصناف الناس يوم القيامة بمقدمة، ثم عرض للموضوع، ثم خاتمة :

المقدمة: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُبْنًًا ﴿٦﴾ [الواقعة: ١/٦-٦].

ثم يأتي التلخيص في قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الشِّمَّةِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَّةِ ﴿٩﴾ وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ ﴿١٠﴾ [الواقعة: ٧/١٠-١٠]، فهؤلاء هم الأصناف الثلاثة للناس يوم الحساب.

ثم يأتي الموضوع مفصلاً لأحوال هذه الأصناف وصفاتهم يقول تعالى: ﴿أُولَئِكَ الْمَقَرُّونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقِيلَ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَلِّبِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَكَهَرُوا بِمَا يَتَخَفَرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحِمٍ طَيِّبٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَخُورٍ عَيْنٍ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلِيِّ الْمَكُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا

سَلَامًا سَلَامًا ﴿٦٦﴾ وَأَصْحَبُ الِئِمِّينَ مَا أَصْحَبُ الِئِمِّينَ ﴿٦٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٦٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿٦٩﴾ وَظَلٍّ مَّدْودٍ ﴿٧٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٧١﴾ وَفُكْهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٧٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٧٣﴾ وَفُرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنِشَاءً ﴿٧٥﴾ فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٧٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٧٧﴾ لِأَصْحَابِ الِئِمِّينَ ﴿٧٨﴾ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٧٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَأَصْحَبُ الِئِمِّينَ مَا أَصْحَبُ الِئِمِّينَ ﴿٨١﴾ فِي سَوْمٍ وَحَمِيمٍ ﴿٨٢﴾ وَظَلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ ﴿٨٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٨٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا لَمَجُّوْعُونَ ﴿٨٧﴾ أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٨٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٨٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿٩٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ لَمَكْدُوبُونَ ﴿٩١﴾ لَأَكُونَنَّ مِن شَجَرٍ مِّن زُقُومٍ ﴿٩٢﴾ فَالْكُفُورُ مِنهَا الْبُطُونُ ﴿٩٣﴾ فَتَشْرَبُونَ عَلَيْهِ مِّنَ الِئِمِّينَ ﴿٩٤﴾ فَتَشْرَبُونَ شَرْبَ الْهَمِيمِ ﴿٩٥﴾ هَذَا تَرْفُؤُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿[الواقعة: ٥٦/١١-٥٦]﴾.

ثم تأتي الخاتمة في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَّظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُرْهَانَ﴾ [الواقعة: ٨٣/٥٦-٨٥] ... إلى أن يقول مجملاً مصير كل صنف من هذه الأصناف وملخصاً: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُتَرَفِّينَ ﴿٨٨﴾ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّاتٌ نَّعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الِئِمِّينَ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنَ أَصْحَابِ الِئِمِّينَ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكْذِبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَتَرْجُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَنَصْلَةٌ جَمِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٨٨/٥٦-٩٦].

فانظر إلى روعة القرآن وجلاله، كيف قدّم للموضوع بمقدمة موجزة، ثم فصل الموضوع تفصيلاً رائعاً، خاطب فيه العقل والعاطفة، ثم لخّص الخاتمة تلخيصاً، وبذلك جعل الموضوع واضحاً وضحاً وضح الشمس في رابعة النهار.

ثالثاً - إعداد الخطبة:

لكي نُعدّ الخطبة إعداداً سليماً، لا بد أن نتبع الأمور التالية:

- ١ - نحدد الموضوع.
- ٢ - يجب أن يكون الغرض واضحاً، والهدف جلياً.
- ٣ - ثم بعد ذلك نُكوّن الفكرة الأساسية التي يدور حولها الموضوع.
- ٤ - ثم نجمع النصوص المختلفة من القرآن الكريم والسنة.
- ٥ - ثم نطبق بذكر مثال من قصص الأنبياء، أو السلف الصالح.
- ٦ - ثم إن الخطيب يكون ناجحاً باهراً، عندما يربط الحاضر بالماضي، وعندما يحاول طرح حلول مناسبة لمشاكل الحاضر.